تفسير إبن كثير

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

ولهذا قال تعالى : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا [كلهم] تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ، ولهبا ووهجا عظيما ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ; ولهذا قال : (إنه كان عذاب يوم عظيم) .وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ; وذلك لأنهم قالوا : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) [الأعراف : 88] ، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) [هود : 94] ; وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم : (

أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) [هود : 87] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وهاهنا قالوا : (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه .(فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .قال قتادة : قال عبد االله بن عمر رضي االله عنه : إن االله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن االله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم نارا .وهكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث االله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف االله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى .وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت

فتسقط عليهم ، فأرسل االله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعا تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعا . ثم تلا محمد بن كعب : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة حدثني يزيد الباهلي : سألت ابن عباس ، عن هذه الآية (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) قال : بعث االله عليهم ومدة وحرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] فخرجوا من البيوت هرابا إلى البرية ، فبعث االله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها االله عليهم نارا . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .